مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
المجلد 4 العدد 1 / جوان 2018

Mila Univ center. Publish. Co..

البلاغة العربية في ضوء النظرية التداولية "حازم القرطاجني" أنموذجاً

ARAB RHETORIC IN THE LIFE OF PRAGMATICS HAZEEM EL QARTAJANI AS A SAMPLE

أ.بقاح سامية

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف – ميلة

الجزائر

تاريخ الاستلام: 2018/02/17 تاريخ التعديل: 2018/06/25 تاريخ قبول النشر: 2018/06/27

الملخص :

هذه الدّراسة محاولة متواضعة تسعى إلى الإسهام في قراءة التراث العربي الشّامخ، قراءة معاصرة من خلال التّعريف بواحد من أهّم الكتب التّي تزخر بها المكتبة العربية، والمتمثّل في "**منهاج البلغاء وسراج الأدباء**"، هذا الكتاب المتفرّد في موضوعاته المتفرّد في إضافاته والمتفرّد في منهجيته، الذّي أسال، ولا يزال يسيل حبر أقلام باحثين ودارسين ونقاد كثر نظرا لما يحمله بين دفتيه من مادة علمية ثريّة، وقضايا نقدية وبلاغية وفلسفية لا تقّل أهميّة عمّا تطرحه النظريّات الحديثة، وهذا ما يفسّر قمّة الوعي الذّي تمتّعت به الدّراسات البلاغية والنّقدية التراثية. فتراثنا العربي كان سبّاقا لمعالجة أهم القضايا التّي تطرحها الحداثة الغربية اليوم، وبهذا فهو بحاجة ماسّة إلى جهود معرفية تنفض الغبار عنه، من أجل استيعاب ذخره المعرفي الثمين، وبالتّالي إعادة قراءته، قراءة واعية.

سنحاول في هذه الدّراسة تسليط الضوء على البلاغة العربية، وبالأخص البلاغة الحازمية ومحاولة قراءتها قراءة تداولية.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، التداولية، المبدع، المتلقي، الصدق، الكذب.

Abstract:

This study is a modest attempt which aims at contributing to understanding and analysing the high Arab literary patrimony, through introducing one of the most eminent Arabic books, precisely: " MINHAJE EL BOULAGA WA SIRAJE EL UDABA."

This exceptional book, in the matter of topic and methodology, was and steel is the concern of countless researchers and writers, thanks to its rich scientific, critical rhetorical and philosophical content, whose importance is not inferior to that of modern theories of pragmatics and other branches on linguistics.

The content of HAZEM's book embodies the rhetorical and the critical awareness of the ARAB patrimony and thus, the latter requires a serious study in order to unveil and exploit the mysterious treasure hid in the ancient literature.

In our attempt to study ARAB rhetoric, we shall specifically shed the light on HAZEM's one, aiming to read and analyse it pragmatically, and to study it according to, and compared with modern theory .

***Key Words** : Rhetoric - Pragmatics – Innovator – Receptor - The true - The false*

مقدمة:

إنّ المتفحص في التراث العربي والمتمعّن في الدّراسات التّي تناولت المعنى، السياق والمقام فضلا عن المقاصد التّي يستهدفها المخاطب من الخطاب انطلاقا من مبدأ لكل مقام مقال ليجد أن ثمّة تقاربا بين ما وعاه علماؤنا القدامى، وبين ما نجده اليوم في الدّراسات الحديثة الغربية، التّداولية منها خاصّة باعتبارها " العلم الجديد للتواصل" الذّي يدرس الظواهر اللّغوية في مجال الاستعمال.

فالتراث العربي يبطن كنوزا أكثر ممّا يظهرها إلى العيان، وبهذا يبقى دائما مجالا شاسعا من شأن الباحث أن يكشف خباياه وأسراره.

وعلى هذا الأساس قرّرنا الخوض في بحث يجمع في الآن ذاته بين مادة تراثية ورؤى حديثة لإعادة بناء نظرية عربية أصيلة تفيد من التراث العربي الأصيل، وتستفيد من النظريات المعاصرة في مجالات المعرفة المختلفة، إذ نعيد اكتشاف الماضي من خلال أسئلة الحاضر وبدائله المعرفية، كما نزداد معرفة بالحاضر من خلال إرهاصاته ومَخاضاته الماضية، على حد تعبير محمد العمري.

فاخترنا موضوعا للبحث والتّطبيق من ذخيرة تراثنا العربي، عند الشاعر والنّاقد والفقيه، والفيلسوف "**حازم القرطاجني**" في كتابه الثري "**منهاج البلغاء وسراج الأدباء**".

ولقد كان هذا مبررا لصياغة عنوان الدّراسة من هذا المنطلق : **البلاغة العربية في ضوء النظرية التداولية "حازم القرطاجني"أنموذجاً".**

سنحاول في هذه الدّراسة تسليط الضوء على البلاغة العربية، وبالأخص البلاغة الحازمية، ومحاولة قراءتها قراءة تداولية، أي سنحاول توظيف بعض معطيات التّداولية لمقاربة الفكر النقدي والوعي البلاغي عند حازم القرطاجني، واكتشاف بعض مكامن التشابه بين التداولية والبلاغة الحازمية.

كل هذا وضعنا أمام الإشكالية التالية:

ما هي الأبعاد التداولية في بلاغة حازم القرطاجني؟

1- البلاغة والتداولية:

1.1-التداولية قراءة في النشأة والمفهوم:

تعدّ التداولية ملتقى يجمع العديد من البحوث الفلسفية واللّسانية، فهي مجال رحب يستمدّ معارفه من مشارب مختلفة، فنجده يمتح من علم الاجتماع، وعلم النفس المعرفي، واللّسانيات وعلوم اللغة، وعلوم التواصل، والفلسفة التّحليلية. وهذا ما أدّى إلى اختلاف وجهات النظر بين الدّارسين حول مفهومها، فكل باحث ينطلق في تعريفها من مجال تخصّصه، ورغم هذا الاختلاف، فإنّ معظمهم يقرّ بأنّ قضيّة التداولية هي إيجاد القوانين الكليّة للاستعمال اللّغوي والتعرّف على القدرات الإنسانية للتّواصل اللّغوي، فهي **علم استعمال اللغة**، أي تدرس اللغة بعدّها كلاما محددا صادر من متكلّم محدد، وموجّه إلى مخاطب محدد بلفظ محدد في مقام تواصلي محدد لتحقيق غرض تواصلي محدد[1]. ومن تعريفاتها، نجد:

« التداولية هي مجموعة من البحوث المنطقية واللسانية(...) وهي كذلك الدّراسة التّي تعنى باستخدام اللغة، وتهتم بقضيّة التلاؤم بين التعابير الرّمزية والسّياقات المرجعية والمقامية والحديثة والبشرية»،[2] فالتداولية تدرس اللغة أثناء التلفّظ بها في السّياقات والمقامات المختلفة حسب أغراض المتكلّمين وأحوال المخاطبين، كما أنّها«تتطرّق إلى اللّغة كظاهرة خطابية، وتواصلية واجتماعية معا»[3]، وأشمل تعريف للتّداولية هو: «دراسة اللّغة في الاستعمال، أو في التواصل لأنّه يشير إلى أنّ المعنى ليس شيئا

متأصل في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلّم وحده، ولا السّامع وحده، فصناعة المعنى تتمثّل في تداول اللغة بين المتكلّم والسّامع في سياق محدد وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما»[4]. فاللُّغة في الاستعمال، أوفي التّواصل تقتضي متكلِّمًا وسامعًا أو متلقِّيا، بالإضافة إلى السِّياق، لأنَّ المعنى لا يتمُّ إلاَّ إذا توفَّرت هذه الشُّروط.

نلاحظ من خلال كل هذه التعاريف، أنّ التداولية تهتم بالبعد التواصلي للّغة، وبهذا فهي علم جديد للتواصل.

ومن مباحث التداولية: الاشاريات، نظرية أفعال الكلام، نظرية الاستلزام الحواري، نظرية الملاءمة، ونظرية الحجاج.

2.1- البلاغة العربية:

تعدّ البلاغة العمود الفقري للكتابة العربية والأساليب الإنشائية، وقد ظلَّت تَشْغل حيِّزًا كبيرا في حقول المعرفة الفلسفيَّة، والنقديَّة والأدبيّة إلى يومنا هذا.

ومفهوم البلاغة في التصوّر العربي القديم يتمثّل في الوصول إلى التعبير بصيغة جميلة، أي تأدية المعنى (المدلول) واضحا بعبارة (دال) صحيحة، فصيحة لها في النّفس أثر خلّاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذّي يقال فيه، والأشخاص المخاطبين به، وهي في اللّغة تنبّئ عن الوصول والانتهاء، ومن هنا سمّيت البلاغة "بلاغة"، لأنّها تنهي المعنى (المدلول، القصد، المضمون) إلى قلب السّامع (المتلّقي) فيفهمه.

ولا يختلف المعنى الاصطلاحي عند البلاغيين عن المعنى اللّغوي الذّي يتمثّل في الوصول والانتهاء إلى نفوس المتخاطبين، فهذا أبو هلال العسكري يقول:« البلاغة كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السّامع فتمكنه في نفسه كتمكنك في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن».[5] فالبلاغة هي فن الخطاب الجيّد، وهي ترمي إلى توصيل معنى الخطاب كاملا إلى المتلقي، سواء كان سامعا أو قارئا، قصد التأثير فيه، وإقناعه. فوظيفة البلاغة وغايتها الأساسية هي نجاح المتكلّم في إيصال المعنى إلى قلب السامع.

وهذا الأصل اللغوي تستند إليه كل الكتب البلاغية الحديثة في تحديد معنى البلاغة، فنلاحظ أنّ معنى البلاغة بصفة عامة، ينهض على مراعاة طرفين اثنين:

الطرف الأوّل: هو المتلّفظ بالخطاب البليغ، ويجب أن تتوّفر فيه صفات معيّنة حتّى يتمكّن من التّأثير في مخاطبه وبلوغ المبلغ الذّي يريد منه.

والطرف الثّاني: هو المتلقي للخطاب المبثوث من قبل المخاطب في شكل رسالة بليغة وسليمة حتّى تحدث الأثر المطلوب، ممّا يعني أنّ البلاغة تقوم على مبدأ الاتصال، فهي تبحث في كيفية استخدام اللغة بطريقة سليمة تضمن وصول قصد المتكلّم ومراده إلى مخاطبه، والتّأثير فيه من خلال مراعاة حاله أثناء الكلام بما يضمن نجاعة الخطاب في النهاية.[6] فالبلاغة إذن عمليّة تواصلية بين متكلّم، وسامع غايتها الإقناع ووسيلتها جودة الأسلوب وجماله.

3.1- علاقة البلاغة بالتداولية:

تتقاطع البلاغة العربية مع الدّرس التداولي في مباحث عديدة أثبتها عدد من العلماء والباحثين المعاصرين، وتعدّ هذه الأخيرة « أحسن ما يتناول إبراز العلاقات التداولية في اللغة، لأنّها تهتم بدراسة التعبير على مختلف مستوياته: اللّفظية، والتّركيبية والدّلالية، والعلاقات القائمة بينها»،[7] فالبلاغة العربية تحمل بعدا تداوليا، وبهذا فهناك «تداولية بلاغية إلى جانب التداولية اللّسانية والمنطقية والفلسفية»[8]، وأدلّة ذلك مبثوثة في ثنايا أمّهات الكتب البلاغية، كالبيان والتبيين للجاحظ، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ومفتاح العلوم للسكاكي، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني والقائمة طويلة. فما جاء به التداوليين المعاصرون لم يكن جديدا بالنّسبة لعلمائنا العرب القدامى.

ومن أهمّ قضايا البلاغة العربية التّي تشترك في تناولها مع قضايا اللسانيات التداولية نجد: تداولية المتكلم، وتداولية الخطاب، وتداولية المخاطب، فالبلاغة العربية درست اللغة حال استعمالها، وبالنّظر إلى كلّ ما يرتبط بالإبلاغ والتّواصل من شروط وملابسات[9].

ولقد اهتّم الكثير من الباحثين بدراسة العلاقة بين البلاغة، والتّداولية، فالبلاغة حسب تعبير ليتش تداولية في صميمها، فهي ممارسة الاتصال بين المتكلّم والسامع، بحيث يحلاّن إشكالية علاقتهما، مستخدمين وسائل محدّدة للتّأثير والتأثّر المتبادلين بينهما، والبلاغة والتداولية تتّفقان في اعتمادهما على اللّغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي.[10] وعلى هذا الأساس فالبلاغة والتداولية تعتمدان على اللغة كأداة ووسيلة حجاجية للتّأثير في المتلقي.

كما تحدّث محمد العمري عن مواضع تلاقي وارتباط البلاغة العربية بالتداولية في مؤلفاته، يقول: «البلاغة مبحث قديم يهتم بفن الإقناع في مكوّناته وتقنياته: استنباط الحجج ومعالجتها وبثّها، ومن هذه الزاوية نجد البلاغة اليوم في ارتباط بالتداولية».[11] فالبلاغة ترتبط بالغاية الإقناعية والتأثيرية، وعلى هذا الأساس تتفق مع التداولية .

ويرى الدّارسون المحدثون أنّ ما قدّمه العرب في باب الخبر والإنشاء لا يختلف عمّا تعرضه نظرية الأفعال الكلامية التّي تعدّ من أهمّ جوانب اللّسانيات التّداولية لما تحويه من أفكار ورؤى لسانية مهمّة. وفي التراث العربي، تندرج ظاهرة الأفعال الكلامية ضمن مباحث علم المعاني، وتتموقع هذه الأخيرة ضمن الظّاهرة الأسلوبية المعنونة ب"الخبر والإنشاء" وما يتعلّق بها من قضايا وفروع وتطبيقات، ولذلك تعدّ نظرية الخبر والإنشاء عند العرب– من الجانب المعرفي العام مكافئة لمفهوم الأفعال الكلامية عند العاصرين،[12] وبالضبط عند أوستين وسيرل ، وبهذا فنظرية الأفعال الكلامية ممثّلة في البلاغة العربية من خلال أسلوبي الخبر والإنشاء.

إنّ البلاغة عبارة عن عملية تواصلية بين متكلّم وسامع معيّن في مقام معيّن. والنشاط التواصلي هو تفاعل بين طرفين، وتأثّر وتأثير متبادل بين مرسلين، « فإذا كانت التداولية في أوجز تعريفاتها، هي دراسة مناحي الكلام، أو دراسة اللّغة حين الاستعمال، فإنّ البلاغة هي المعرفة باللّغة أثناء استعمالها»،[13] فالبلاغة من أهمّ الدّراسات التّي تؤكّد الارتباط بين دراسة اللّغة واستعمالها في السياق، وبالتّالي فالعلاقة بين البلاغة والتداولية «تتمثّل في رصد كيفيات إيصال المعنى إلى المتلقي لأنّه هو الذّي يعيد إنتاج الرّسالة من خلال فعل القراءة، ولا بد من أن يتمكّن من فك شفرة هذه الرسالة ولا يكون ذلك إلاّ بإعادة تحليلها وفق الفهم».[14]

ومنه فالبلاغة والتداولية تشتركان في مفاهيم عدّة:

– الاهتمام بطرفي الخطاب من متكلّم ومتلقّ، وبالكلام أثناء السّياق.

– الاهتمام باللّغة في الاستعمال وبالتّأثير في المتلقي.

2– البلاغة: "العلم الكلّي" عند حازم القرطاجني:

إنّ المتتبّع لتاريخ البلاغة العربية يستطيع أنّ يميّز في مسارها الطّويل ثلاث محطّات أساس هي "البيان" الذي ينصرف إلى بلاغة الإقناع ويمثّلها تراث الجاحظ، و"البديع" الذي ينصب على بلاغة التخييل، وأبرز روادها ابن المعتز الذي ألّف كتابا

بنفس العنوان. ثم محطّة "البلاغة العامة" التي تجمع في ضفيرة واحدة، بلاغة الإقناع والتخييل، ويمثّلها مشروع بلاغي موسّع هو مشروع حازم القرطاجني كما بسّطه في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"[15] الذي هو موضوع دراستنا.

يقول "حازم القرطاجنِّيَّ" في تبيان مدى اتّساع مجال البلاغة: "**«وكيف يظنُّ إنسانٌ أنَّ صناعة البلاغة يتأتَّى تحصيلُها في الزَّمن القريب، وهي البحر الذّي لم يَصِل أحدٌ إلى نهايته مع استنفاد الأعمار»**[16]، ويذهب محمد العمري إلى أنّ حازم القرطاجني قد شبّه حال من يظن إمكان تحصيل البلاغة والاستفادة منها، في وقت وجيز، بحال الرجل الذّي قضى ليلته في تصفح كتب الطب، ثمّ أصبح وهو يحرر وصفة طبية لإسعاف صديقه المريض، فعجّل بنهايته، إذ بوسع إنسان ذكي، كما قال أن يحصل بالاجتهاد في علم من العلوم، خلال شهر أو عام، شيئا يعتد به في ذلك العلم، وليس ذلك ممكنا في علم البلاغة،[17] لأنّ الخوض في المسائل البلاغية ليس بالأمر السّهل، فهي البحر الذّي لم يصل أحد إلى أعماقه على حدّ تعبير حازم.

قدّم حازم القرطاجني تصوّرا جديدا لمفهوم البلاغة يختلف عن كلّ التصورات التي سبقته في تاريخ الفكر البلاغي عند العرب. فمصطلح البلاغة عنده ليس مرتبطا بمفهوم البلاغة السّائد في المدونة البلاغية والنقدية، فقد عرّفت هذه الأخيرة بتعريفات كثيرة، منها الإيجاز، الفصل والوصل...، لكنّ البلاغة عند القرطاجني مقرونة بالعلم، فهو يصرّح بوضوح بأنّ البلاغة هي العلم الكلي لمعرفة تناسب المسموعات والمفهومات، يقول: «**ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلاّ بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب من التناسب والوضع...**»،[18] فالعلم الكلّي عند القرطاجني هو الذّي تندرج تحته مختلف أشكال التناسب، وتنكشف من خلاله جهات التلاؤم والتنافر في الكلام.

لاحظ القرطاجني ما وصلت إليه البلاغة العربية من جمود، فنظرتها إلى الشعر كانت جزئية، أي تنصرف إلى المعنى الجزئي، وتميّز الكلام الفصيح عن غيره من خلال علوم ثلاثة: المعاني، والبيان والبديع، فالبلاغة القديمة كانت بلاغة جملة وبهذا قام بمراجعة، ومحاولة تصحيح ما كان سائدا قبله، إذ جمع كل التّعريفات السّابقة له في تعريف واحد، وهو **علم البلاغة أو العلم الكلّي**، وبهذا تصير البلاغة عند القرطاجني

علما، وهذا ما يميّزها عن البلاغة القديمة.

ولتحقيق مشروعه بوضع قوانين للبلاغة، اتجه وجهة الفلاسفة المسلمين واطّلع على تصوّراتهم للشعر، فسعى إلى استنباط قوانين عامّة من النصوص الشعرية العربية، فهو يريد أن يتجاوز ما قاله الأوائل، بحيث لا يقف عند ظواهر الصّنعة البلاغية، وإنّما يتجاوزها إلى خفاياها ودقائقها، على حدّ تعبيره.

وعلم البلاغة عند القرطاجني يشتمل على صناعتي الشعر والخطابة، وهذا ما يظهر في قوله: «**لمّا كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والاقناع، وكان لكلتيهما أن تخيّل وأن تقنع في شيء من الموجودات الممكن أن يحيط بها علم إنساني...**»[19]، وبهذا فعلم البلاغة الذي يطمح القرطاجني إلى إقامته، هو العلم الكلّي الذي يندرج ضمن كلياته علوم اللسان الجزئية «ولكونه العلم الكلّي المشتمل على صناعة القول الشعري، شعره ونثره، يبدو علما مختصا بتنضيد القوانين الكليّة وهو ما يقربه كثيرا من مفهوم الأدبية أو الشعرية».[20] إذن علم البلاغة هو كل ما يلزم معرفته لإتقان صناعة القول الشعري.

وعلى هذا الأساس فعندما استفتح القرطاجني كتابه بعنوان "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" كان يقصد منذ البداية، لفت انتباه المتلّقي الذّي اهتم به كثيرا إلى أنّ كتابه تنظير عام في القول شعره ونثره. «وبهذا يكون لكتاب حازم صنف خاص به داخل تصنيف كتب البلاغة،...يحق أن يسّمى "أصول البلاغة، أو فلسفة البلاغة... فإذا كان أهل البلاغة يريدون أن يعرّفوا البلاغة ما هي في ذاتها، وما هي الأسباب المحصّلة لها؟ فإنّ حازما يريد أن يعرف لما كانت كذلك؟ ولما كانت تلك الأسباب محصّلة لها؟».[21] وهنا يظهر التّجديد والابتكار عنده، فقد استطاع أن يخالف أسلافه من البلاغيين ويتجاوزهم في كثير من القضايا المهّمة.

وفي موضع آخر يربط حازم القرطاجني علم البلاغة بالأصول المنطقية، يقول: «**فينبغي لمن طمحت به همّته إلى مرقاة البلاغة المعضودة بالأصول المنطقية والحكميّة ولم تسفف به إلى حضيض صناعات اللّسان الجزئية المبنية أكثر آرائها على شفا جرف هار، ألاّ يعتقد في وزن من الأوزان أنّه مفتقر في وضعه إلى أن يفكّ من نظام آخر...**».[22]

إن فهم القرطاجني للبلاغة بوصفها علما لسانيا كليا، تعضده الأصول الحكمية والمنطقية يجعل منها بلاغة عامّة تهتّم بالتّنظير لمختلف أنماط القول الشعري، من خلال إقامة بلاغة لصناعة الشعر، والخطابة معا.

وهنا نلاحظ اتّساع الخلفية المعرفية والموسوعية التّي يتّكأ عليها القرطاجني ممّا جعله يقدّم هذا التصوّر الشمولي لعلم البلاغة، إذ استفاد من التراث الأرسطي عبر شروح الفلاسفة للبحث في الشعر العربي، وهو ما جعل عمله فريدا، وذلك ما عبّر عنه بقوله: **«وقد سلكت في ذلك مسلكا لم يسلكه أحد قبلي من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مرامه وتوعر سبيل التوصل إليه».**[23]

قدّم حازم القرطاجني تصوّرا جديدا لمفهوم البلاغة يختلف عن كلّ التصورات التّي سبقته في تاريخ الفكر البلاغي عند العرب، فالبلاغة عنده هي العلم الكلّي الذي تنضوي تحته علوم اللسان الجزئية. وهنا يلتقي مع الدّراسات البلاغية المعاصرة، فالتصوّر البلاغي الحديث يدرج مباحث البلاغة ضمن علوم اللسان، كما أنّ علم البلاغة عنده «أقرب إلى ما نسمّيه– في عصرنا الحاضر بالنقد الأدبي، من حيث شمول العمل وتعدّد جوانبه»،[24] وهذا دليل على أنّ آراء القرطاجني تتّفق مع كثير من الآراء النقدية المعاصرة، وهذا ما يفسّر نزوع فكره نحو الإبداع والابتكار.

يعدّ مصطلح علم البلاغة عند حازم القرطاجني الأم الكبرى لكلّ الشجرة المصطلحية والمفهومية عنده، لأنّه المصطلح المركزي الكبير الذّي سلسل تحته شبكة مصطلحاته لإبراز نظريته في المعنى والشعرية ولإبراز مقولاته النقدية[25]. ويمكن توضيح ما سبق من خلال المخطّط التّالي:

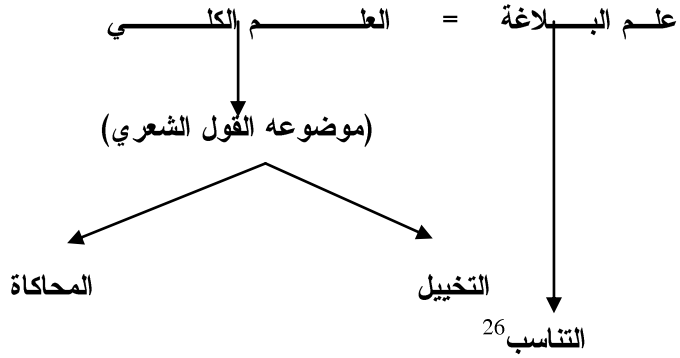

(تناسب العلاقات، والتركيب، والترتيب، والنظم)

« فمفهوم البلاغة كما بلوره حازم أن يكون أبرز محاولة لتأسيس بلاغة عامة، تشمل جميع أنواع الخطاب، وذلك بإقامة بلاغة للشعر والخطابة، بوصفهما الجنسين الكبيرين في الأدب العربي. ولتحقيق هذه الغاية عمد حازم إلى المزاوجة بين التراث البلاغي الذّي راكمه سابقوه من النقاد العرب، والبلاغة اليونانية التّي انفتح عليها من خلال جهود الفلاسفة المسلمين، ممن عنوا بموضوع الشعرية. وهو ما منح معالجته للمسائل البلاغية بعدا تجديديا واضحا».[27] وعلى هذا الأساس وصلت البلاغة مع حازم القرطاجني قمّة الوعي بذاتها، فهو أوّل من نادى بالخروج بالبلاغة من إطارها القديم إلى إطار جديد، وبهذا قدّم انجازا عظيما في البلاغة العربية القديمة.

3- البعد التداولي للبلاغة الحازمية:

كان لحازم القرطاجني فضل الالتفات إلى العديد من القضايا الهّامة سواء في البلاغة أو النّقد بمنظور حديث يضاهي ما في التداوليات، وقد عالج هذه القضايا بوعي عميق لا يقّل عن إدراك التداوليين الغربيين، وهو ما جعل كتاب المنهاج يزخر بكثير من المؤشرات التداولية تتجلى في معالجته اللغوية، والبلاغية لكثير من القضايا، فقد« رسم أفقا جماليا لقراءة مكونات الشعر وسماته من خلال البلاغة في مستوياتها المتعدّدة الأسلوبية والتداولية»،[28] وهذا يبيّن سبق العرب في معرفتهم للمفاهيم التداولية، وتطبيقها في دراساتهم لمختلق القضايا، فالتراث العربي فيه الكثير من المفاهيم والتصوّرات التّي تتشابه، أو تتطابق مع ما جاء به التداوليين المعاصرين. مع الإشارة إلى وجود بعض الفروق الإبستيمولوجية والمنهجية لاختلاف البيئة المعرفية والمرجعيات الثقافية بين الدرسين العربي والغربي. «فالمنجز البلاغي لحازم – وبالرغم من طابعه التجديدي الواضح – فإنّه يضرب بجذور عميقة في التراث البلاغي العربي، الذّي وعاه حازم وتشربه من مصنفات سابقيه، كما أنّ انفتاحه على البلاغة الأرسطية من خلال جهود الفلاسفة المسلمين، جعله في قلب الاهتمامات النقدية الراهنة، إذ من المعروف أنّ البلاغة الأرسطية شكّلت التراث الهام الذّي رجع إليه البلاغيون الجدد من أجل بناء بلاغة جديدة وحديثة»،[29] وبالتّالي جمع حازم بين الجانب النقدي، والبلاغي، والفلسفي في آن واحد، حيث لم يقف بالبلاغة عند حد التعريف والتّمثيل كما فعل معظم البلاغيين قبله، ولم يذهب مذهب أرسطو في تنظيره للشعر اليوناني على غرار ما قام به الفلاسفة

المسلمين، ولكنّه جمع كلا الاتّجاهين في اتجاه آخر متفرد عنهما، ممّا جعلنا« أمام منهج جديد من الدّرس البلاغي مهمّته المزج بين الأصالة والعاصرة في الثقافة والفنون والآداب، وخاصّة في مجالي الشعر والنثر».[30]

اهتم حازم القرطاجني بمجموعة من القضايا التّي تفتح بلاغته على المجال التداولي، ومن أهم القضايا التّي تكشف هذا الانشغال: «أ- إلحاحه على وظيفة النّص الشعري، بالنّظر إلى مقاصد منجزه.

ب-اهتمامه بالمقام التواصلي الذّي يدخل في سياق التبليغ الخطابي.

ج- انشغاله بقضيّة التداخل بين الخطابات، من خلال المقارنة بين التخييل والتصديق.

د- عنايته بالغرض بوصفه معيارا موجها في قراءة النص الشعري».[31]

1.3- الاهتمام بالمبدع(الشاعر)، المتلقي، الرسالة(الخطاب): ينظر حازم للنص الشعري من زاوية نجاعته في تحقيق مقاصد منجزه، ومدى التّأثير في المتلّقي وإقناعه. فالوظيفة البلاغية عنده مرتبطة بمقاصد نفعية، وتفكيره البلاغي قائم على منفعة الخطاب ونجاعته، ولهذا نجده يولي الاهتمام بالأطراف الثّلاثة المؤسسة للتّواصل الأدبي، متمثّلة في المبدع، والمتلّقي والنّص.[32]

*إهتّم حازم في منهاجه بالمتكلّم ومقصديته، ومنحه عناية كبيرة، فركّز على حريّته الإبداعية يقول: «**وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلّم من جميع جهاته. فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون منها فيه رقّة وعذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد . فإنّ طريقة البلاغة فيها أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث ذكر**»،[33]

ويتضّح من خلال هذا القول أنّ حازم القرطاجني كان واعيا لدور القصدية في بناء القصيدة، فالشاعر يجب أن يفتتح قصيدته بألفاظ مناسبة لمقصده وغرضه من تأليف خطابه، والقصدية من أهم عناصر التداولية التّي تختص بدراسة مقاصد المتكلّم وأغراضه من كلامه.

كما تمكّن القرطاجني من إظهار البعد النفسي لشخصية المبدع من خلال تركيزه على ثنائية البسط والقبض التّي شكلّت أحد الأسس النّفسية التّي قام عليها الكتاب، مع ضرورة حرص المبدع أن يكون خطابه مؤثرا، ومقنعا ومراعاة موقف المتلقي إزاء القضايا التّي

يثيرها لغرض تحقيق الإفادة، وعلى هذا الأساس يظهر مبدأ التعاون بما يحمله من قوانين واضحا لدى حازم القرطاجني فلكي يتحقّق التواصل، وتتحقّق الفعالية المرجوة منه لا بدّ من تحقق مبدأ التعاون، هذا الأخير الذّي اعتمد عليه التداوليين باعتباره «المبدأ الذّي يرتكز عليه المتكلّم للتّعبير عن قصده، مع ضمانه قدرة المرسل إليه على تأويله وفهمه»،[34] فالشاعر يجب أن يحترم، ويراعي العلاقة بينه وبين متلقيه بحيث يكون صادقا في أحاسيسه، ومشاعره لغرض إفادة المتلقي، والتأثير فيه.

* اهتّم الفرطاجني أيضا بالمتلّقي وجعله محورا مركزيا في الخطاب الشعري، وذلك من خلال اهتمامه بالشعر وتحقيق التّأثير الوجداني فيه. كما اهتّم بالشروط التّي يجب أن تتوّفر في النص الشعري من اختيار الألفاظ والمعاني والأسلوب، وكيف تكون الأقوال الشعرية مناسبة لمقامات التكلّم . واهتمامه بثلاثية التواصل اللغوي: "الشاعر، والعملية الشعرية، والمتلقّي" التّي كان النقاد والبلاغيون ينظرون – في الغالب– إلى واحدٍ من عناصرها دون الآخر، هو ما جعل منهجه قريبًا من المنهج التداولي.

ممّا سبق يتضّح اتفاق آراء حازم مع بعض معطيات ومنجزات التداولية، هذه الأخيرة التّي تهتم بطرفي الخطاب، وتدرس العلاقة النفعية التّي تربط القائل بالمخاطب، كما تهتم بفعل التأثير الذّي يمارسه القول على المخاطب، وتضع شروطا للمتكلّم من خلال توفّر مقاصده، ومشاركته في الحدث الكلامي، وتأثيره على المتلقي. وقد تنبّه حازم إلى هذه القضايا المهمّة التّي تخص أطراف العملية الإبداعية، وهي الشاعر، المتلقي، والشعر التّي أولاها عناية كبيرة.

2.3- بين التخييل والتصديق:

إنّ بلاغة حازم منفتحة على الخطاب التداولي من خلال المقارنة بين التخييل والتصديق وبيان مدى تداخلهما وتخارجهما في الخطابين الشعري والخطابي، فالشعر مبني على التخييل وقد يستعمل مكونات الإقناع الخطابي ضمن هيمنة العنصر الذاتي.وعكس ذلك حال الخطابة التّي تنبني على العناصر الاقناعية وتدخل العناصر التخييلية في خدمتها[35]. فالتخييل قوام الشعر، والإقناع قوام الخطابة، لكنّهما يلتقيان في الغرض والمقصد، وهو« **إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثّر لمقتضاه**»، [36]وهنا يلح القرطاجني على ضرورة المزاوجة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية، «فالوظيفة التداولية والبلاغية التّي يقوم بها الإقناع في الشعر هي

شدّ السامع أو القارئ إلى المبدع»،[37] وبهذا فالغرض في كلتا الصناعتين هو التّأثير في المتلقي، أي القصد والهدف واحد في الشعر والخطابة.

لقد اتخذ القرطاجني من تمييزه بين الشعر والخطابة منطلقا يعالج على أساسه مجموعة من القضايا المتعلّقة بالا بداع الشعري، ومن أهمّ هذه القضايا قضيّة الصدق والكذب،[38] بحيث قدّم في كتابه تفصيلا دقيقا حول هذه القضيّة التّي حام حولها النقاد طويلا، فالشعر عنده تكون «**مقدماته صادقة، وتكون كاذبة، وليس يعدّ شعرا من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب بل من حيث هو كلام مخيّل**»[39]، وبهذا ينظر إلى الشعر من ناحية تأثيره، وقدرته على إحداث الانفعال النفسي في المتلّقي، فالقول الشعري يحقّق شعريته بما يكتسبه من تخييل.

كما يقف القرطاجني موقفا معارضا من الذين أشاعوا نسبة الكذب إلى الشعر، يقول: «**وإنّما احتجت إلى إثبات وقوع الأقاويل الصادقة في الشعر، لأرفع الشبهة الداخلة في ذلك على قوم، حيث ظنوا أنّ الأقاويل الشعرية لا تكون إلاّ كاذبة**»،[40] فاشترط أن يكون الكذب في خفاء حتّى يكون الشعر حسنا، لأنّ وضوحه من رداءة الشعر على حد تعبيره، فالمعاني الصادقة هي التّي تحرّك النفوس أكثر من الأقاويل الكاذبة. وهذا ما ذهب إليه غرايس في حديثه عن مبدأ التعاون وقوانيه، وبالأخص قانون الصدق الذّي يعد «مبدأ تداولي يضمن للخطاب الشعري وغيره من الخطابات حسن التلقي، لأنّ السامع ينفر من الخطابات الشديدة الاتّصاف بخاصية الكذب»[41] فالكذب يحدث تشويشا واضطرابا في الفهم لدى المتلقي، وهذا ما يؤدي إلى انقطاع التواصل.

3.3-عنايته بالغرض الشعري:

يشير القرطاجني إلى الدّراسات التّي سبقته في تقسيم الأغراض، ويعلّق عليها وينتقدها لما فيها من نقص وتداخل، فهي غير صحيحة على حدّ تعبيره، بحيث «إنّ الأغراض لا تختلف حسب اختلاف موضوعها فقط – كما ينص على ذلك النقد القديم– بل تختلف أيضا بحسب اختلاف نفسيات المخاطبين الذّين يودّ الشّاعر التّأثير فيهم واستمالتهم إلى ما يقول، فالغرض الشعري عند حازم موقف قابل للتلّون باختلاف الألوان التّي تخلعها عليه نفسية المتلّقي، أوالمخاطب وباختلاف السياقات التواصلية التّي تكتنف الخطاب الشعري على النحو الذّي تذهب إليه معظم الدراسات التداولية».[42] لهذا يعالج قضيّة تقسيم الأغراض استنادا إلى طابع نفسي، وأخلاقي يقول: «**فأمّا طريقة معرفة القسمة**

الصحيحة التّي للشّعر، من جهة أغراضه فهو الأقاويل الشعرية لمّا كان القصد بها استجلاب المنافع واستدفاع المضّار ببسطها النفس إلى ما يراد من ذلك وقبضها عمّا يراد بما يخيّل له من خير أو شرّ، وكانت الأشياء التّي يرى أنّها خيرات أو شرور منها ما حصل ومنها ما لم يحصل، وكان حصول ما من شأنه أن يطلب يسمّى ظفرا...»[43] ويتضّح جلّيا من خلال هذا القول، أنّ القرطاجني يربط الأغراض بالانفعالات النفسية، كما يعتمد «الغرض الشعري معيارا تداوليا يوجه قراءته للنص الشعري بالنظر إلى علاقته بمتلقيه»،[44] وعلى هذا الأساس ينطلق من قانون أساسي يركّز فيه على البعد النّفسي في فعالية التّعبير الشعري، وهي فعالية التأثير في المتلّقي ببسط نفسه أو قبضها.«ممّا يدل على أن معالجة حازم لأغراض الشعر، يتحكم فيها مبدأ "نفعية الخطاب" لأن اختيار الغرض وصياغته متوقّف على مدى القبول الذي يمكن أن يجده لدى المتلقي»[45] الذّي أولته الدّراسات التداولية المعاصرة عناية كبيرة لأنّه الطرف المحرّك للعملية التخاطبية.

خاتمة:

توصّلنا في ختام هذه الدّراسة إلى بعض الأبعاد التداولية التّي تضمّنتها بلاغة حازم القرطاجني الذّي اتّخذناه أنموذجا للبلاغة العربية، بحيث ساهم في إثراء الفكر البلاغي العربي، وإمداده بتصوّرات تخدم صميمه بشكل جعل نظرياته تتشابه مع بعض النظريات التداولية الحديثة، وإن لم ترد بشكل واضح المعالم، فالسبق الذّي حازه حازم القرطاجني كان نابعا من وعيه العميق لمعارف عصره، وتشعّبه بالثّقافات السّائدة آنذاك المستمدّة من التفاعل الثقافي العربي، واليوناني.

وبناء على هذا، يمثّل القرطاجني علامة في التراث النقدي والبلاغي العربي، ولعلّ ما يميّز نظريّته في البلاغة حرصه على النظر إلى القضايا التّي يتعرّض لها من جهة جديدة وبمنهج مبتكر، ومتميّز. فهو الذّي قيل فيه "**حَبر البلغاء وبحر الأدباء**"، كيف لا، ونحن أمام صاحب ثقافة متنوّعة وتجربة عميقة، أحدث منعرجا معرفيا في التراث العربي.

الإحالات والمراجع:

[1]– ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند علماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ط1، دار التنوير، حسين داي، الجزائر،2008، ص25،37.

[2]– فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا 2007، ص 17.

[3]– فراسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش،(د.ط)، مركز الانتماء القومي، الرباط، المغرب ،1986 ص8.

[4]– محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،(د.ط)، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص14.

[5]– أبو هلال العسكري : الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، د.ط،منشورات المكتبة العصرية، صيد – بيروت، لبنان، 1986، ص16.

[6]– ينظر: باديس لهويمل: مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسّكاكي،ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد الأردن، 2014، ص42،43.

[7]– خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، 2009، ص 154.

[8]– مصطفى العرافي: بلاغة النص الشعري مقاربة تداولية حجاجية لبلاغة حازم، ط1، دار الراية للنشر والتوزيع، الأردن عمان، 2014، ص89

[9]– ينظر:خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القدي، ص162.

[10]–نظر: يصلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، مصر، 1996، ص.124

[11]– محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول،د.ط، أفريقيا الشرق،المغرب،2005، ص62.

[12]– ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ط1، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص74، 75.

[13]– خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص154.

[14]– سليمان بن سمعون: البلاغة وعلاقتها بالتداولية والأسلوبية وعلم النص، مجلّة الواحات للبحوث والدراسات، ع17 غرداية، الجزائر، ص46.

[15]– ينظر: مصطفى العرافي: بلاغة النص الشعري مقاربة تداولية حجاجية لبلاغة حازم، ط1، دار الراية للنشر والتوزيع الأردن ، عمان، 2014، ص 44.

[16]– أبو الحسن حازم القرطاجني: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 88.

[17]– ينظر :محمدالعمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول،(د.ط)، أفريقيا الشرق، المغرب، 2005 ، ص5.

[18]–حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص226.

[19]– المصدر نفسه ، ص 19، 20

[20]– فاطمة عبد الله الوهيبي، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ط1، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 2002 ص273.

[21] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص10.

[22] – المصدر نفسه ، ص131.

[23]– المصدر نفسه، ص18

[24]– جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث، ص160

[25]– ينظر: فاطمة عبد الله الوهيبي، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ص 70، 272

[26]– اهتّم القرطاجني كثيرا في كتابه المنهاج بالتاسب، فأبرز أهميّته بعدّه قانونا أساسيا يتحكّم في حسن سير العمل الابداعي، وكذا اعتماده المحور الأساس في علم البلاغة ، متجاوزا في ذلك كلّ ما قيل عن هذا المصطلح قبله.

[27]– مصطفى العرافي:بلاغة النص الشعري مقاربة تداولية حجاجية لبلاغة حازم، ص 57.

[28]– محمد مشبال، البلاغة والخطاب ، الامام العزوزي: إشكال التخييل والإقناع في بلاغة حازم القرطاجني) ط1، دار الأمان، الرباط، 2014، ص102.

[29]– مصطفى العرافي: بلاغة النص الشعري مقاربة تداولية حجاجية لبلاغة حازم، ص 135.

[30]–عمر إدريس عبد المطلب:حازم القرطاجني، حياته ومنهجه البلاغي، (د.ط)، دارالجنادرية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2009، ص 94.

[31]– مصطفى العرافي:بلاغة النص الشعري مقاربة تداولية حجاجية لبلاغة حازم، ص 92.

[32]– المرجع نفسه، ص92، 94،95.

[33]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 310.

[34]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا 2004، ص 96.

[35]– ينظر: محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، د.ط، أفريقيا الشرق، المغرب، 2005، ص56،57.

[36]– حازم القرطاجني، منهاج البلعاء وسراج الأدباء، ص 361.

[37]– محمد مشبال، البلاغة والخطاب، الامام العزوزي: إشكال التخييل والإقناع في بلاغة حازم القرطاجني، ص99.

[38]– ينظر: مصطفى العرافي:بلاغة النص الشعري مقاربة تداولية حجاجية لبلاغة حازم، ص100.

[39] – حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص63.

[40] – المصدر نفسه ،ص81.

[41]– لخذاري سعد: الدرس البلاغي العربي بين السيميائيات وتحليل الخطاب، ط1، دار الأمان، الرباط، 2017، ص292.

[42]– محمد أديوان: قضايا النقد الأدبي عند حازم القرطاجني، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004 ص377.

[43]– حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص337.

[44]- مصطفى العرافي: بلاغة النص الشعري مقاربة تداولية حجاجية لبلاغة حازم، ص105.

[45]- المرجع نفسه، ص106.